الفصل الأول

مؤثرات عامة

١

أحداث كبرى

نحتاج فى دراستنا لأدب أى أمة من الأمم إلى معرفة الأحداث الكبرى التى أثرت فى حياة منشئيه ، لأن الأدب فى حقيقته مرآة ناصعة صافية تنعكس عليها حياة أهله وما تأثروا به من أحداث عامة وظروف خاصة .

ولما كُنّا ستتحدث عن الأدب المصرى منذ القرن الماضى ، فإننا مضطرون إلى أن نرجع إلى الوراء لنربط الأحداث بعضها ببعض . ولعل أكبر الأحداث السابقة اقتحام الحملة الفرنسية لمصر فى آخر القرن الثامن عشر ، واصطدامها بهذا الشعب الذى كان يرزح تحت أثقال الحكم العثمانى منذ غزّاه الترك فى القرن السادس عشر ، وأنزلوا بأهله البؤس والضنك والإعسار ، ومن أهم خصائص الترك أنهم كانوا غُزاة فاتحين ، ولم يكونوا أصحاب حضارة ولا نظام فى الحكم والسياسة .

وقبل ذلك هدموا الحضارة البيزنطية فى القرن الخامس عشر بفتحهم القسطنطينية ، ولكن هذا الهدم لم يكن شديد الضرر ، بل كان شديد النفع ، فإن أصحاب هذه الحضارة هاجروا إلى أوربا وساعدوا مساعدة فعالة فى نشأة نهضتها الحديثة ، بما نشروا فيها من الآثار اليونانية والرومانية .

أما فى مصر والشام — وكانا قد أصبحا موئلى الحضارة الإسلامية منذ غزوات التتار للشرق العربى وغزوات المسيحيين الشماليين للأندلس — فقد هدم الترك

ما فيهما من حضارة بفتحهما ، وحطموا كل ما وجدوه فيهما من صروح العلم والأدب والفن ، ولم يُتَح لعلمائهما وأدبائهما وطن جديد يهاجرون إليه ، بل نُفيت جماعة منهم إلى القسطنطينية ، وبقيت جماعة فى عُقر ديارها خاملة ، لا تستطيع أن تنتج علماً ولا أدباً ، فقد فقدت حريتها ، ولم تعد تجد ما تسدُّ به رمقها . وبذلك انهارت الحياة العقلية والأدبية فى مصر ، لولا نشاط ضئيل ظلَّ فى الأزهر ، وكان يحفه ظلام مطبق من الفقر والبؤس والحكم الظالم الغاشم .

وفى هذه الأثناء نزلت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت فى مصر عام ١٧٩٨ ومكثت نحو ثلاث سنوات كانت جميعها جهاداً عنيفاً وصراعاً مريراً قاسياً بين الشعب المصرى والمعتدين . ولم يُجْدِ نابليون نفعاً ما أنشأه من مجالس شورى سميت باسم الدواوين ألَّفها من طبقة المثقفين الأزهريين ومن كبار الأعيان والتجار ، وجعل لها حق البحث فى بعض شئون الحكم ، وخاصة الضرائب ، فقد كانت مجالس صورية لتنفيذ مآربه الاستعمارية فى السياسة والإدارة . وقد ظل الشعب المصرى يقاومه ويثور ضده وضد حملته ثورات متعاقبة بذلَ فيها الدماء وعزيز الفداء .

وكان لهذه المقاومة الباسلة وهذا الكفاح المرير أثرهما فى نشأة الشعور القومى عند المصريين وإحساسهم العميق بحقوقهم المشروعة فى حكم بلادهم . فلما أقلعت الحملة عن ديارهم وعادوا إلى حكم العثمانيين رأوا أن من حقهم اختيار الوالى الجديد ، واختاروا محمد على ، ووافقهم الباب العالى .

وقد اطلع الشعب المصرى من خلال هذه الحملة على بعض وجوه الحياة الأوربية . فقد رأى المصريون أفرادها يتناولون حياتهم المادية بصُوَر لم يكونوا يألفونها سواء فى أكلهم وشربهم أو فى لهوهم وما كانوا يقيمون من حفلات التمثيل والغناء والرقص والموسيقى . وكانوا يرون نساءهم يمشين متأبطات لأذْرُعهم — كما يقول الجبرتى فى الجزء الثالث من تاريخه — « وهن حاسرات الوجوه لابسات الفُستانات ومناديل الحرير الملونة ، يَسْدلن على مناكبهن الطُّرَح

الكشميرى والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ؛ مع الضحك والقهقهة ومداعبة المُكارية معهم وحرافيش العامة » .

ولفتت الحملةُ المصريين إلى ما أصاب الغربيون من تقدم فى العلم ، فإن نابليون استقدم معه طائفة من العلماء البارعين المتخصصين فى مختلف العلوم التاريخية والطبيعية والرياضية ، ولم يلبث حين نزل مصر أن أسس المجمع العلمى المصرى على غرار المجمع العلمى الفرنسى . وانبعث العلماء الذين جاءوا معه يدرسون مصر من جميع أطرافها ، وكانت ثمرة ذلك تسعة مجلدات طُبعت فى فرنسا (١٨٠٩ — ١٨٢٥) باسم « وصف مصر » وهى أساس كل المعلومات التى عُرفت فى أوربا عن مصر الحديثة .

وأنشأ نابليون بجانب هذا المجمع العلمى معامل ومكتبة ومطبعة ، وكانت المعامل تعنى بالبحث العلمى التجريبى ، وكان الفرنسيون يستدعون المصريين لرؤية ما يُجرّون من تجارب كيمائية لا عهد لهم بها ، فيعجبون وينبهرون ، يقول الجبرتى فى أثناء وصفه لمعمل الكيمياء الذى أقاموه : « ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصبّ منها شيئاً فى كأس ، ثم صبّ عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فعلا الماء ، وصعد منه دخان ملوّن ، حتى انقطع وجفّ ما فى الكأس ، وصار حجراً أصفر ، فقلبه على البرجات حجراً يابساً ، أخذناه بأيدينا ونظرناه . ثم فعل كذلك بمياه أخرى ، فجمدت حجرا أزرق ، وبأخرى ، فجمدت حجراً ياقوتياً . وأخذ مرة شيئاً قليلا جداً من غبار أبيض ، ووضعه على السندال ، وضربه بالمطرقة بلطف ، فخرج له صوت هائل ، انزعجنا منه ، فضحكوا منا » . ومن غير شك كان ذلك يدعو المصريين إلى التفكير فى علمهم النظرى وأن وراءه علماً فى الغرب ينبغى أن يقفوا عليه .

ورأى المصريون المطبعة التى جلبها نابليون معه ، وكانت تطبع بالحروف العربية منشوراته وبعض الصحف الدورية بل أخذت تطبع بعض الكتب .

ولم يكن للمصريين عهد لا بالمطبعة ولا بما تطبع من منشورات وكتب وصحف فكان ذلك كله جديداً عليهم .

وقد ظن المصريون حين أقلعت الحملة عن ديارهم أنهم يبدأون تاريخاً جديداً لأمة مجاهدة متحررة ، فاختاروا محمد على والياً عليهم ، ولكنه لم يَجْرِ معهم إلى آخر الشوط الذى كانوا يحلمون به ، إذ نكّل بمن اختاروه منهم . وقد أقام مثلَ نابليون مجموعة من الدواوين ، سلبها حقوقها ، فقضى بذلك على آمال المصريين ومطامحهم فى اشتراكهم مع الحكام فى حكم أنفسهم وتدبير شئونهم .

وهو إن كان قد حطم آمال المصريين فى هذا الاتجاه فإنه بعثها فى اتجاه آخر إذ عُنى بالجيش ، وأراد أن يكون مثل جيوش الدول الكبرى عُدَّة واستعداداً ، فاضْطُرَّ اضطراراً إلى الاستعانة بالأساليب الأوربية والمعلمين الأوربيين. وكانت مصر قد تهيأت لتفتح صدرها للعلم الأوربى ، ووجد طريقه إلى المدارس التى أنشئت من حربية وصناعية وهندسية وطبية . ولما كان المعلمون فى هذه المدارس من الفرنجة وكان لا بد للمصريين أن يحسنوا اللغات الأجنبية ليفهموا عنهم وُجدت الحاجة إلى مدرسة الألسن وإلى بعوث ترسل إلى الغرب ،حتى يتقن المصريون اللغات الغربية ، وأنشىء فى أثناء ذلك كثير من المدارس الابتدائية والثانوية .

وكل هذا ساعد فيه محمد على ليوجد جيشاً قوياً لنفسه يحقق به أحلامه فى إمبراطورية ضخمة، فلم يكن غرضه التعليم من حيث هو أو ردّ الحياة العلمية الخصبة إلى مصر من حيث هى ، وإنما كان غرضه شخصياً لنفسه ولأحلامه ، فلما لم تتحقق أحلامه انصرف عن التعليم،وأغلق ابنه عباس المدارس من بعده. ولكن الصلة بين مصر وأوربا أو بين الحياة العقلية المصرية والحياة العقلية الأوربية قامت ، ولم يعد من الممكن أن يُقْضَى عليها لسببين هما : أولا وجود طائفة من العلماء المصريين الذين بُعثوا إلى أوربا وعادوا ليثبّتوا حركة المزج

الحديثة بين حياتنا العقلية وحياة الأوربيين، وثانياً مهاجرة كثير من الأوربيين إلينا وتأسيسهم للشركات والمدارس فى ديارنا ، وزار مصر كثيرٌ من أدبائهم وأخذت تؤثر بتاريخها القديم والحديث فى أدبهم والأدب الأوربى عامة .

لذلك لم يلبث سعيد أن فتح المدارس ، وأخذت الحركة تنمو وتؤتى أُكُلَها فى عصر إسماعيل فإنه استجاب للروح المصرية ، ودعَم الصلة بأوربا ، فأنشأ « دار الأوبرا » و « المكتبة الخديوية » وأكثر من المدارس الابتدائية والثانوية ، وأقام مدرسة للبنات ، وبذلك أصبح العلم للعلم ، ولم يعد العلم للجيش كما كان الشأن فى أوائل القرن .

وهنا نقف عند حادث مهم وهو فتح قناة السويس فى عهد إسماعيل ، وكان لهذا الفتح آثار عملية واضحة ، إذ قَرَّبَت القناة المسافات المادية بين الشرق والغرب ، كما قربت المسافات المعنوية بين الشعوب الشرقية والغربية فى اتجاهات تفكيرها وحضارتها . وكان لهذا الفتح أيضاً آثار سياسية بعيدة فى العلاقات الدولية مما نشأ عنه فيما بعد احتلال الإنجليز لمصر .

ففتحُ هذه القناة أثَّر فى مستقبل مصر السياسى وفى العلاقات بين الدول ، وهو كذلك أثر فى العلاقات العقلية على اختلاف أنواعها سواء فيما يتصل بنا أو فيما يتصل بالأوربيين بعضهم ببعض ، لأن العلاقات العقلية والمادية جميعاً متشابكة متفاعلة . وكَثُرَ إقبال الأوربيين على مصر كما كثر أو زاد إقبالُ المصريين على أوربا ، وأخذت تُرفَع الحواجز التى تفصل بين الحياتين المتقابلتين : حياة المصريين وحياة الأوربيين . وقد أنشأ إسماعيل مجلس الوزراء ومجلساً نيابيًّا ، ووضع كثيراً من القوانين على النمط الأوربى . ونحن لا نصل إلى عصر إسماعيل حتى نلاحظ ما يمكن أن نسميه « نمو النزعة القومية » فقد كان الشعب المصرى فى عصر محمد على وعباس لا وجود له سوى الوجود الآلى ، فهو آلات أو أدوات تستغلّ لمجد محمد على وأسرته وبطانته من الترك ، على الرغم من أنه لم يكن

تركيَّ الأصل ، بل كان ألبانيًّا ، إلا أنه وأسرته صبغوا أنفسهم بالصبغة التّركية . وخير ما يمثل ذلك مسجده الذى بناه على طراز مساجد الآستانة . وقد أنشأ مطبعة بولاق ، وعُنيت فى أكثر الأمر بطبع الكتب التّركية ، ولما أصدر « الوقائع المصرية » كان يصدرها بالعربية والتّركية ، وكانت أساليبه الإدارية أساليب تركية خالصة .

ومعنى ذلك أن أعمال محمد على لم يكن فيها نزعة قومية ولا مصرية واضحة وقد وَأدَ بذور طموح المصريين لحكم أنفسهم كما قدمنا فلم يؤت ثماره ، بل قضى عليه فى مهده ، ولكن أنَّى له ! إن هذا الطموح لا يموت موتاً نهائيًّا ، وإنما هو كالنار تبقى جذوته ضئيلة ، ولكنها عاملة نشيطة .

فلما ولى سعيد ومن بعده إسماعيل أخذ هذا الطموح ينمو فى الأرض الطيبة ، وساعد على ذلك دخول أبناء الفلاحين فى الجيش ووصول بعضهم إلى المناصب الكبيرة فى الإدارة المدنية من مثل رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك ومحمود الفلكى . وزار مصر جمال الدين الأفغانى سنة ١٨٧١ وظل بها نحو ثمانى سنوات دعا فيها دعوته المشهورة فى الإصلاح الدينى والإفادة من ثقافة الغرب فى الدفاع عن الإسلام ، كما دعا إلى التحرر من تدخل الأجانب فى شئون البلاد الإسلامية والثورة عليهم وعلى من يمهد لهم من الحكام المستبدين ، والتفَّ حوله الشيخ محمد عبده وغيره . وكانت سياسة إسماعيل المالية قد تراءى فشلها وخطرها أمام الأنظار .

فكل ذلك نَمَّى الرأىَ العام والنزعة القومية ، وسرعان ما ظهرت صحف مصرية مثل جريدة مصر والوطن تنقد فى صراحة سياسة إسماعيل ، وتنادى : مصر للمصريين . وسقطت وزارة نوبار سنة ١٨٧٩ ، وتطورت الحوادث ، ونهضت هذه الروح نهوضاً قويًّا كان من نتائجه ثورة الجيش بقيادة عرابى ضد الضباط الأتراك الجراكسة لعهد توفيق سنة ١٨٨٢ . واستعان توفيق ضد الحركة بحراب الإنجليز التى أغمدوها فى صدور الشعب ، ومن حينئذ أصبحت مصر خاضعة

لاحتلال إنجليزى بغيض ،وبدا للعيان أن حاكمها من أسرة محمد على لا يمتُّ إليها بصلة جنسية ولا قومية ، فهى ليست أكثر من بقرة حلوب يمتصها الأجنبى عن طريقه . وحُكمت مصر بالمستشارين الإنجليز ، وكان يتولى وزاراتها مصريون ، ولكن أكثرهم كان من أصول تركية . وكانت سياسة الإنجليز أن يحكموا هؤلاء الوزراء بمستشاريهم وموظفيهم فى الوزارات أو النظارات المختلفة . وأنشأوا مجالس تشريعية ، ولكنها كانت مغلولة السلطان ولم يكن لها من الأمر شىء. على أن هذا الاحتلال التعس لم يقض على الحركة الوطنية قضاء مبرماً ، فقد خمدت ولكن إلى حين ، إذ كانت قد نشأت طبقة المصريين المستنيرة وأخذت تشارك فى الحكم وتتقلد مناصبه الكبرى، ورجع المنفيون إلى مصر فى عهد عباس الثانى ،ونشطت الحركة الوطنية ممثلة فى الزعيم الخالد مصطفى كامل، فأصدر فى سنة ١٨٩٩ صحيفة اللواء ، واتخذ منها ومن خطبه النارية أداة لإلهاب عواطف المصريين ضد الإنجليز ، وأسس الحزب الوطنى ، وزار كثيراً من عواصم أوربا يعرض قضية مصر ويندد بالاحتلال الإنجليزى غير المشروع .

ثم كانت حادثة دنشواى المعروفة سنة ١٩٠٦ وهى تلك التى توفى فيها ضابط إنجليزى كان يصطاد الحمام بهذه البلدة إثر ضَرْبة شمس . وظن الإنجليز أن أهل هذه البلدة قتلوه ، فأنزلوا بهم عقاباً وحشياً فظيعاً، إذ نصبوا المشانق فى البلدة ، فشنقوا طائفة ، وسجنوا أخرى، ونزلوا بالسياط على ثالثة . وكانوا جميعاً أبرياء ، ولكنه طغيان الباغى الذى لا يعرف رحمة ولا شفقة ، وقابل الشعبُ هذا الحادث ومعه زعيمه مصطفى كامل بالاستياء الشديد ،وبدا لرأى العين أن المصريين لا يزيدهم الإرهاب إلا حقداً وسخطاً على المحتل الغاصب .

وتمادى الإنجليز فى عنتهم وظلمهم وسجونهم وتضييق الخناق على حريات المصريين ، حتى كانت الحرب الأولى فأعلنوا الأحكام العرفية . ووضعت الحرب أوزارها فثار عليهم المصريون ثلاث سنوات طوالا ، ولم يفل من عزمهم نفى ولا تشريد ولا سجون ، بل ظلوا يحادونهم ويعاندونهم ، حتى اضطروهم

إلى تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ وفيه احتفظوا ببعض المسائل كمسألة السودان ومسألة الدفاع عن مصر .

ولم يُضعف هذا التصريح من حدة الثورة المصرية على الإنجليز ، بل ما زالت مصر تضطرب بعوامل الثورة حتى وقّعت إنجلترا معاهدة سنة ١٩٣٦ ولكنها لم تحقق غاية مصر ، فظلت نيران الثورة تموج فى صدرها ، حتى جاءها البشير بثورة الجيش المباركة ، فتحقق حلمها القديم ، وعادت القوسُ إلى باريها ، وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى طردت ثورتنا المستعمر من دارنا وتبعته تنكل به فى كل دار عربية ، بل أيضاً فى كل دار إفريقية وآسيوية ، وهو ترتعد فرائصه وفرائص جماعته مولياً الأدبار . وبذلك تزعزع بنيانه وهوت أركانه فى كل مكان .

ولا بد أن نشير إلى أنه فى أثناء الاحتلال الإنجليزى حاول الإنجليز جاهدين أن يُعلُوا ثقافتهم بديارنا فوق الثقافة الفرنسية وغيرها من الثقافات الأوربية ، فحيناً يجعلونها لغة العلم والتعليم ، وحيناً يجعلون البعثات جميعاً إلى بلادهم . وقد أقبلت على ديارنا طائفة من البعوث الدينية الغربية المختلفة ، وأسست كثيراً من المدارس فى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من عواصم القطر المصرى ، وكان لها أثرها فى حياتنا الثقافية .

وهذه البعوث الدينية كانت أكثر نشاطاً فى سوريا ولبنان ، سواء منها الكاثوليكية الفرنسية والبروتستانتية الأمريكية ، إلا أن الأولى كان مدى عملها أوسع بفضل اليسوعيين الذين عُنوا باللغة العربية وحياتها الأدبية . وقد أخذت طوائف لبنانية وسورية كثيرة تهاجر إلى مصر منذ عصر إسماعيل فراراً من ظلم الأتراك أو سعياً وراء الرزق ، ولم تلبث هذه الطوائف أن شاركت فى حياتنا الأدبية عن طريق الصحف مثل الأهرام وطريق الكتب والمؤلفات والمترجمات .

٢

تياران : عربى وغربى

يجرى فى أدبنا منذ القرن الماضى تياران : عربى وغربى ، أما التيار العربى فكان يمثله الأزهر وتعليمنا فيه . ومعروف أن الأزهر هو الذى حافظ على تراثنا الإسلامى والعربى أيام محنتنا بالحكم العثمانى ، فإن المدارس المختلفة التى أنشأها الأيوبيون والمماليك أغلقت أبوابها ، ولم يعد يضيء فى حياتنا العقلية سوى هذه المصابيح الضئيلة التى كانت ترسل من الأزهر نوراً شاحباً خافتاً .

ولم تكن هذه المصابيح تقتصر على الدين بل كانت تشمل العلوم اللغوية والطبية والفلسفية ، وإن كانت العناية بالعلوم الأخيرة ضعيفة . بل إن العلوم الدينية نفسها كانت قد تخاذلت وتضاءلت تحت تأثير الظلم الذى أرهق به العثمانيون أهل مصر . وكلنا نعرف أن مصر استطاعت قبل الحكم العثمانى أن تُسْهم فى الحضارة الإسلامية فى أثناء العصرين الفاطمى والأيوبى ، وانفردت فى أثناء عصر المماليك بالنهوض بتلك الحضارة ، واتخذت لذلك طريقاً واضحاً أن تجمع التراث الإسلامى العربى وتضعه من جديد فى كتب كبرى تشبه دوائر المعارف على نحو ما نعرف فى صبح الأعشى للقلقشندى ونهاية الأرب للنويرى ولسان العرب لابن منظور .

وعلى حين كانت مصر معنيَّة بجمع التراث العربى والمحافظة عليه نزل بها طوفان العثمانيين فإذا هو يأتى على هذه الجهود العقلية الخصبة ، بل إنه يصيبها بعطل شديد ، فيتوقف فى مصر كل شيء ، ويعم العقم والجمود ، وتتراجع هذه النهضة الذهنية ، حتى تصبح شيئاً ضئيلا جداً لا نكاد نتبينه إلا فى متون وملخصات يبدئ فيها الأزهريون ويعيدون ، وكل ما يستطيعون عمله أن يشرحوها ، وقد يشرحون الشرح ، وقد يعلقون عليه ، وهم بذلك لا يضيفون إلى العلم شيئاً ذا خطر ، بل لقد عقّدوا العلم تعقيداً بكثرة متونهم وشروحهم وتقريراتهم

وتعليقاتهم وما حشدوا فيها من عُقَد وألغاز ؛ فقد تحولت العبارات نفسها إلى أحاج مغلقة ، وأصبح همّ العلماء أن يحلّوا هذه الأحاجى ، وحلّها لا يضيف علماً إنما يضيف فساداً لغوياً .

وانقطعت الصلة بينهم وبين الكتب العلمية الأولى التى ألِّفَتْ فى العصر العباسى ، بل التى ألفت فى العصر القريب منهم عصر المماليك ، فكنت قلما تجد من يعرف شيئاً عن كتب الأئمة مثل الشافعى أو الفلاسفة مثل الفارابى أو المفكرين الاجتماعيين مثل ابن خلدون .

لم تعد العلوم شيئاً سوى متون مثل متن المنهج للشيخ زكريا الأنصارى الذى جَمع فيه كل مسائل الفقه الشافعى ، وكان الأزهريون إلى قريب من عصرنا يحفظون ما يسمى مجموع المتون ، وهو مجموع يحصى كل أنواع العلم العربى ويحيله جُمَلا مبهمة فى شعر أو نثر للحفظ والتسميع . وكأن العلماء شعروا أنه لم يعد هناك شىء يقال ، فهَمُّ الواحد منهم أن يتناول المتن الذى لُخِّصَ فيه العلم أو بعبارة أدقّ لُغِّز ليحلّه ، وقد يكتب فى الحل شرحاً مبهماً ، ليس فى كثير من الأمر خيراً من المتن ، فيعمد عالم آخر إلى حلّ الشرح بشرح ثان يسمونه حاشية ، ويتبين عالم ثالث أو رابع أن شرح الشرح ليس كافياً فيعمد إلى التعليق عليه بما يسمى تقريراً .

وبهذا أصبح العلم العربى الذى كان يملأ المجلدات الضخمة شيئاً ضئيلا جداً لا يتجاوز صفحات معدودة ، وران على الحياة العقلية ضربٌ من الجمود الشديد ، وأصبح لا بد من هزة عنيفة لتعيد إلى ينابيع حياتنا العقلية دورتها الأولى .

ولم تكن حياتنا الأدبية خيراً من حياتنا العقلية ، فقد وقف النشاط الذى كنا نراه فى عصر المماليك وقبله ، والذى كان يتيح لنا بعض الأزهار الفنية ، فنجد عندها بعض المتاع وبعض الراحة ، إذ لم تعد مصر تحت تأثير العثمانيين وما أشاعوا فيها من فساد فى النظم السياسية والاجتماعية صالحة لأن تخرج أزهاراً أو ما يشبه الأزهار ، فقد غلّوها وغلوا أدباءها ، وحالوا بينهم وبين حرياتهم الفردية ، كما حالوا بينهم وبين الرخاء المادى ، فانهارت حياتهم أو بعبارة أخرى

انهارت حياتنا الأدبية كما انهارت حياتنا العقلية ، وأصبحتَ لا تجد كاتباً ولا شاعراً تستطيع أن تقرأ له شيئاً يلذّ عقلك أو يلذ روحك . وعلى نحو ما أصبحت حياتنا العقلية تلخيصاً للتراث الماضي وإفساداً له أصبحت كذلك حياتنا الأدبية تلخيصاً ، بل تقليداً مملاً لبعض القصائد القديمة ، يحاكيها الشعراء ويتناولونها بالتخميس والتسبيع أو التشطير ، ولا يضيفون إلى ذلك إلا عُقَداً من البديع المتكلف الممقوت ، وكأن الغرض من القصيدة تطبيق أنواع البديع لا أكثر ولا أقل . ومن المستحيل أن تجد فى أثناء ذلك عاطفة أو شعوراً حقيقياً . وبالمثل أصبحت الكتابة شيئاً سقيماً ، أصبحت سجعاً ولكنه سجع ضعيف ركيك ، لا يؤدى شيئاً سوى ألوان البيان والبديع المعقدة .

وفى هذا الوقت الذى قُضِيَ فيه على حياتنا العقلية والأدبية بالجمود والركود قُضى على أوربا أو قُدِّر لها حياة عقلية وأدبية نشيطة ،وهى حياة تناولت مناحى الفكر الإنسانى جميعه من علم وفلسفة وأدب .

واستعانت أوربا أولَ الأمر بالتراث اليونانى ، فتطورت حياتها الفكرية تحت تأثير هذا التراث الوثنى القديم ، ونشأ حينئذ صراع هائل بين الأدبين المسيحى والوثنى ، وظهرت حركات البروتستانت ، وأخذت أوربا طريقها إلى إحداث آدابها الحديثة . وعلى نحو ما كشفت الآثار اليونانية والرومانية كشفت أمريكا وأخذت فى استغلالها على نحو ما استغلت تلك الآثار .

وأخذت تندفع فى حركتها العلمية ، وتكتشف القوانين الطبيعية وغير الطبيعية التى تسيطر على الحياة والناس ، مستشعرة ضروباً واسعة من الحرية العقلية. وكان من أهم مميزات هذه الحرية نقد كل شىء من دين وغير دين . وقد نقدوا الفلسفة القديمة ، وأسسوا لأنفسهم فلسفة حديثة أقامها لهم ديكارت على أسس علمية ، ثم تطوروا بها نحو التجريد ونحو الطبيعة والعلم الوضعى ، بل نحو الإنسانية بمعناها الواسع . وكل ذلك دون أن يقطعوا صلتهم بفلسفة اليونان وتشريع الرومان .

وعلى نحو ما تطوروا بحياتهم العقلية تطوروا بحياتهم الأدبية ، فاستحدثوا

لأنفسهم بتأثير التراث اليونانى والرومانى أدباً جديداً يخالف أدبهم فى العصور الوسطى ، وكانوا فى أول الأمر يقلدون الآثار اليونانية واللاتينية ، ثم أخذوا يستقلون فى حياتهم الأدبية كما استقلوا فى حياتهم العقلية ، وإذا هم يحدثون آثاراً رائعة لا تقل روعة وبراعة عن الآثار القديمة عند شعراء التمثيل من الإغريق ، وعند هوميروس اليونانى وفرجيل الرومانى .

وكان ذلك جميعه ثورات عقلية وأدبية لم تلبث أن عاونتها ثورات دينية وأخرى سياسية واجتماعية على نحو ما هو معروف فى الثورة الفرنسية . ولما نزلت بمصر حملة بونابرت تنبه المصريون إلى أن وراء حياتهم حياة أخرى فى أوربا ، وأنه حرى بهم أن يفقهوا هذه الحياة الجديدة حتى يتسلحوا لأهلها بمثل سلاحهم . ومن المؤكد أن الفترة القليلة التى قضتها الحملة الفرنسية بمصر لم تتح لنا تأثراً بالحضارة الأوربية للفوارق الواسعة بين حضارتنا وحضارة الأوربيين ، ولكن من المؤكد أيضاً أننا أخذنا بعد خروج الحملة من ديارنا نتجه إلى أوربا ونحاول أن نفيد منها فى الحياة العقلية والأدبية ، فقد أدارت مصر وجهها إلى الشمال ، وأخذت تفتح أنهارها الذهنية والفكرية لاستقبال جداول الحياة العقلية الأوربية .

وتصادف أن اجتمع مع هذه الرغبة فى نفوس المصريين رغبة محمد على فى أن يُعدّ جيشاً على نمط جيوش الدول الأوربية الكبرى ، ورأى أنه لا يستطيع أن يعد هذا الجيش إعداداً حسناً إلا إذا أنشأ له المدارس واستقدم له أساتذة أوربيين يعلمونه فى هذه المدارس ويزودونه بما يحتاج إليه من وسائل ، فأنشأ المدرسة الحربية ، وأنشأ لها معاهد صناعية وطبية ، وأخذ فى تأسيس مدارس ابتدائية وثانوية .

ومنذ هذا التاريخ وُجِدَ فى مصر نوعان من الحياة العقلية : نوع تقليدى محافظ فى الأزهر ، وهو نفس هذا النوع الذى وصفناه آنفاً بما فيه من قصور وجفاف ، ونوع مدنى أوربى يعتمد اعتماداً على الحضارة الأوربية وما عرف الأوربيون من علم لم يسبق للمصريين أن علموه أو عرفوه .

وهنا نلاحظ أشياء : فأولا انتقلت إلينا فى هذا التعليم المدنى الحياة العلمية

الأوربية وما يتصل بها من حياة عملية وفنية تطبيقية ، وثانياً لم تنتقل إلينا فى هذا التعليم طوال النصف الأول من القرن الماضى الحياة الأدبية الأوربية ، لأن والى مصر لم يكن يعنى بها ، فلم يَبْدُ لها أىّ أثر فى شعرنا ونثرنا .

وقد يرجع ذلك إلى طبيعة النوعين من العلم والأدب ، فإن العلم من السهل نقله ونقل قوانينه وقضاياه ، أما الأدب فمن الصعب أن ينقل أو أن تفيد منه أمة ، إلا إذا وضحت بينها وبين الأمم التى تنقل عنها علاقات أدبية تساعد على النقل وأن تتبادل معها آدابها التى تعبر عن روحها وبيئتها ومزاجها وذوقها ، إذ الآداب تخضع لهذه العناصر كلها خضوعاً شديداً ، ومن هنا كان عسيراً أن يتذوق المصرى مع نهضته العلمية حينئذ الأدبَ الغربىَّ وأن يصدر عنه فى أدبه ، فذلك يحتاج إلى آماد وجهود أوسع ، ولا بد أن نتأنى حتى تصطبغ طبقة من المصريين بالأدب الغربى والروح الغربية ، أو حتى تصطبغ حياتنا نفسها بهذا الأدب وتلك الروح .

ولم تنتظر مصر طويلا ، فقد عنى محمد على منذ سنة ١٨٢٦ للميلاد بإرسال البعوث الكبيرة ، فاختلطت طائفة من الشباب المصرى على رأسها رفاعة الطهطاوى بحياة الغربيين ، وأخذت تقرأ هناك فى الأدب الغربى وتفيد وتجتنى اللذة الفنية الخالصة .

وعاد رفاعة فشارك فى حركة الترجمة العلمية التى أوجدتها الضرورة المدرسية ، حتى يعرف المصريون العلم الأوربى . ثم أنشأ محمد على مدرسة الألسن لتخدم هذه الحاجة وعيّن رفاعة ناظراً لها ، ولم يلبث أن تأسس قلم للترجمة سنة ١٨٤٢ وتولى رفاعة رياسته .

ولكن هذا كله كان فى سبيل خدمة التيار العلمى الغربى ، ولم تؤت الثمرة المرجوة من البعوث أكُلَها فى ميادين الأدب والحياة الأدبية ، بل ظلت مصر طوال النصف الأول من القرن الماضى لا تعنى إلا بالعلم الأوربى سواء فيما تدرس وفيما تترجم ، بل لقد استمرت على ذلك طوال عصر سعيد .

ولم يأت عصر إسماعيل حتى خطت مصر خطوات واسعة نحو الامتزاج

بالحضارة الأوربية ، وأخذ كل شيء فيها يصطبغ صبغة حقيقية بتلك الحضارة ، فمن ناحية السياسة والتشريع أخذتْ مصر بنظام نيابي وقضائي مشبه للنظام الفرنسي ، ومن ناحية التعليم أنشئت المدارس العالية المختلفة ، وتأسَّس كثير من المدارس الابتدائية والثانوية ، كما تأسست مدرسة للبنات ، فالتعليم أصبح غاية لنفسه ، ولم يعد يراد به الجيش ، وإنما أصبح يراد به الشعب . وأخذت مصر فى تحضر واسع ، فتأسست الأوبرا ، وأنشأ يعقوب صنوع فرقة تمثيلية كان يترجم لها ، ويؤلف تمثيليات مختلفة ، وهى إن تكن بالعامية فإنها تدل على أن مصر أخذت فى التحول ، بل أخذت تبدأ دورة حضارية جديدة .

واشتد الاتصال بيننا وبين أوربا منذ فُتحت قناة السويس ، فالأوربيون يفدون على مصر يؤسسون بها الشركات والمصارف ، ونحن نكثر من البعوث إلى أوربا لنطّلع على ثقافات القوم الكبرى التى مكنتهم من السيطرة على الحياة والمتعة بها ، ويعود المبعوثون إلينا وقد حملوا لنا أزوادا من الحضارة الأوربية .

وأحسَّ القائمون على الثقافة والتعليم أن الأزهر فى عزلة عن هذه الحركة وأنه لا يقوم بواجبه فى تعليم اللغة العربية وتبسيطها وعرض آثارها عرضاً حسناً على هذا الشباب المدنى ، فقد أصاب لغتنا فيه من الجمود ما جعلها غير صالحة لتتحمل أعباء هذه الثقافة الأوربية من ترجمة وتأليف . فأنشأ على مبارك مدرسة دار العلوم لتنهض فى تعليم لغتنا بما لم يستطع الأزهر النهوض به .

فإنشاءُ دار العلوم إنما هو رمز إلى ما كانت تبتغيه مصر حينئذ من المزاوجة بين الآداب الأوربية والآداب العربية ، فإنها حين رأت قصور آدابنا عن تأدية آثار الفكر والشعور الغربيين أداء واضحاً صريحاً بسبب ما علق بها من أعشاب السجع والبديع انبرت تغيِّر الوسائل التعليمية لتلك الآداب ، وأنشأت هذه المدرسةَ التى نهضت بتعليم لغتنا وتبسيطها حتى تستطيع أن تحمل آثار الغرب الرائعة فى العلم والأدب .

وكان ما قدمنا سبباً فى أن نتهيأ حقًّا للتأثر بالآداب الغربية ، فمن جهة أخذنا نمرن لغتنا على أن تفى بما نريد التعبير عنه من ألوان الفكر وصور الشعور ،

ومن جهة ثانية أخذنا فى التحضر وأخذ ذوقنا يقترب من ذوق الغربيين .

وفى هذه الأثناء أو فى هذا الثلث الأخير من القرن التاسع عشر كانت تهاجر إلى مصر صفوة من اللبنانيين والسوريين الذين تخرجوا فى مدارس اليسوعيين والبعوث الدينية الأوربية والأمريكية المختلفة ، وكانوا قد ضاقوا باضطهاد العثمانيين لهم ، وكان منهم من ابتغى رزقاً فى بلاد أخرى . على كل حال كانوا يريدون أن يعيشوا معيشة كريمة ، فيها اعتراف بحريتهم وبحقوقهم الفردية ، فهاجروا إلينا ، ووجدوا منا ما ابتغوه من حرية وإخاء ومساواة وعيش كريم .

ولم يلبثوا أن عملوا معنا فى نهضتنا الأدبية ، وكانوا قد سبقونا إلى العناية بالآداب الغربية فى عُقْر ديارهم ، ومرجع ذلك إلى البعثات الدينية التى علمتهم ، فإنها لم تكن تعنى مثل محمد على بنقل العلم إلى سوريا ولبنان ، بل كادت تقصر عنايتها على الحياة الأدبية الغربية ، ومن ثم كان اتصال هؤلاء المهاجرين بتلك الآداب أقوى من اتصال المصريين فى هذه الحقب من الزمن . فهم سبقونا إلى الاتصال المنظم بالأدب الغربى ، ولم يهتموا مثلنا أولا بالعلم ، إنما اهتموا به فى زمن متأخر وبعد تأسيس الجامعة الأمريكية عندهم . وقد نهضوا بصحافتنا خير نهوض ، وحمل إلينا سليم النقاش وغيره ما عرفوه من فن التمثيل الأوربى ، فدعموا بذلك اتجاهنا نحو الآداب الأوربية .

وأخذ هؤلاء المهاجرون والمصريون جميعاً يعملون فى حقل غربى جديد ، وأقصد حقل الترجمة ، ولا أريد ترجمة العلم الغربى ، فمصر قد سبقت إليه منذ أوائل القرن ، وإنما أريد ترجمة الآداب الأوربية بمعناها الواسع ، فكان محمد عثمان جلال وغيره من المصريين يترجمون لموليير وغير موليير ، وكان نجيب حداد وغيره من هؤلاء المهاجرين يترجمون لكورنى وشكسبير وغيرهما من الغربيين ، وترجم سليمان البستانى الإلياذة لهوميروس مزاوجاً فيها بين البحور العربية ومبقياً على كل سماتها وخصائصها الملحمية .

وكثرت حينئذ الترجمة للمسرحيات والقصص الغربية ، حتى بلغت مئات ،

وفى فهارس دار الكتب المصرية ما يصور هذا النشاط . ومن غير شك كانت هذه الروايات المترجمة والمعربة تغير فى ذوق الجمهور ، وتصله بالآداب الأوربية ، وتعده لكى يقتحم ميادينها مؤلفاً كما اقتحمها مترجماً ومعرباً .

ونمضى فى القرن العشرين ، فإذا الاحتلال الإنجليزى جاثم على صدر مصر ، ومع ذلك تزداد موجة هذه الترجمة حدة وشدة ، كما تزداد قابلية اللغة العربية لإساغة الآداب الغربية وهضمها وتمثّلها تمثلا دقيقاً . وكل ذلك بفضل هؤلاء الأعلام الذين بدأوا الترجمة فى القرن الماضى ومرّنوا لغتنا تمريناً هائلا على نقل الأفكار والمشاعر الأوربية .

ولا نكاد نتقدم فى هذا القرن حتى تُجْمَعَ تبرعات ضخمة لتأسيس الجامعة المصرية ، وتفتح هذه الجامعة أبوابها فى عام ١٩٠٨ وتُلْقَى بها محاضرات فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، يلقيها أساتذة مصريون ، وأوربيون من المستشرقين أمثال جويدى ونالينو .

وفى هذا ما يدل على أن مصر انتقلت فى حياتها العقلية نقلة كبيرة ، فهى لا تدرس العلم والأدب الغربى لإنشاء جيش أو طبقة من موظفى الدواوين أو معلمى اللغات فى المدارس ، وإنما تدرسهما من أجل أنفسهما ، فلا غاية وراءهما سوى البحث الحر والمتعة بهذا البحث متعة خالصة ، متعة تعلو على الغايات الحكومية واليومية التافهة .

واستجابت مصر أو استجاب شباب مصر لهذا الطموح الكبير الذى راود جلّة المصريين ممن فكروا فى تأسيس هذه الجامعة أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول وقاسم أمين ولطفى السيد . ولم تلبث الجامعة أن أرسلت بطلابها إلى أوربا لاستكمال البحث والدرس ، فدخلوا ميادين العلوم والآداب هناك بقوة وروح عظيمة .

ونشطت حركة البعوث لا فى الجامعة وحدها ، بل أيضاً فى وزارة المعارف حينئذ ، وكان جيل من مدرسة المعلمين العليا أخذ ينبعث عن نفس الطموح ونفس الآمال فى تثقيف نفسه ثقافة واسعة بالآداب الغربية . واتجه بعض المصريين المثرين

إلى نفس الغاية النبيلة .

ولا نصل إلى الحرب الكبرى فى أوائل هذا القرن حتى تظهر ظهوراً بيناً تباشير هذا كله ، فقد اقتحم هذا الشباب الجامعى وغير الجامعى أسوار الحضارة والثقافة الأوربية ، وحصل منها لنفسه ووطنه على كل ما كان يريد من كنوز عقلية وأدبية .

وكان إخوانهم المصريون الذين لم تتح لهم فرصة السفر يدأبون على الترجمة والنهل من معين هذه الآداب الغربية . وسرعان ما ظهرت نتائج هذا كله بعد الحرب الأولى ، فإذا جيل كبير قد تمّ لمصر تثقفُه بالآداب الغربية ثقافة منظمة ، ولم يكتف بذلك ، بل أخذ يثبت شخصيته .

وانتقل هذا الجيل بالترجمة نقلة دنت من حد الكمال بما أوتى من قدرة لغوية وأدبية ، وكان للتجارب الطويلة التى قام بها المترجمون طوال القرن الماضى أثر لا ينكر فى إحسان هذا الجيل لوسائله اللغوية ، ومن المحقق أن المترجمين القدماء عانوا طويلا فى الحصول على الألفاظ العربية المقابلة للألفاظ الأجنبية سواء فى الآداب والعلوم ، ولكن من المحقق أيضاً أن هؤلاء المترجمين المعاصرين أوفوا من دقة الترجمة وجمال أسلوبها على الغاية التى كانت تطمح إليها مصر وتنتظرها .

وحصولنا على هذه الغاية عند لطفى السيد وطه حسين وإبراهيم المازنى وأضرابهم يحمل فى أطوائه تزاوجاً رائعاً بين الآداب الغربية والعربية ، فلم تعد لغتنا تنفر من هذه الآداب ، ولم تعد تستعصى عليها ، بل لقد استقرت فى ذهنية أبنائها ، وأصبحت كأنها من تراثها وتراثهم .

ولم نلبث أن تطورنا بجامعتنا المصرية بعد ثورتنا الوطنية الأولى وماحصلنا عليه من استقلال مقيد ببعض الشروط ، فإذا نحن نضعها تحت إشراف الحكومة سنة ١٩٢٥ ، ونتسع فتشمل بجانب الآداب الطبّ والعلوم والحقوق ، ثم تضم بعد ذلك الهندسة والزراعة والتجارة والطب البيطرى .

وبذلك تبلغ الجامعة المصرية كل ما كان يقدره لها المصريون فى أوائل

القرن من نجاح . وتستقدم العلماء والأدباء الأوربيين ، وما هى إلا دورات قليلة من الزمن حتى يصبح لمصر علماؤها المتخصصون فى جميع فروع العلم، وأدباؤها الذين يلمون بجميع ضروب الآداب الغربية القديمة والحديثة .

وتحقق الجامعةُ كل ما كان يُطْلَبُ منها من بحوث علمية وأدبية ممتازة، وَيخْرج منها جيل يتم مع الأساتذة الرائدين هذه الدورة الرائعة فى تاريخ علمنا وأدبنا ، فيترجم الغربيون ما نحدثه كما ترجمنا ، ونترجم ما يحدثونه .

فالأربعون سنة الأخيرة من تاريخنا الحديث تسجل نصراً مؤزراً لنهضتنا الأدبية الطويلة منذ منتصف القرن الماضى إلى هذا اليوم الذى نعيش فيه، لا لسبب إلا لأن هذين التيارين العربى والغربى اللذين كانا يبدوان منفصلين طوال الحقب السالفة اتحدا اتحاداً متيناً .

ولهذا مظهر واضح لا فى حياة من برعوا فى فهم الآداب الأجنبية ، وإنما فيمن نزعوا إلى قديمنا الخالص من مثل المنفلوطى والرافعى ، فإنهم أقبلوا على التزود من الآداب الغربية المترجمة ، حتى يحدثوا لأنفسهم صوراً أدبية جديرة بالتقدير من مواطنيهم ، وكأنهم عرفوا أنه تولد عندنا رأى أدبى عام ينكر التمسك بالنموذج القديم الذى لا يلائم عصره وحياته ، ويطلب النموذج الجديد الذى يطابق هذه الحياة وذلك العصر ، حتى يستطيع أن يسيغه ، وحتى يستطيع أن يتذوق ما فيه من جمال . ومن أجل ذلك استعان المنفلوطى ببعض القصص المترجمة أو بقصص ترجمت له ، ليكتب ماجدولين وغيرها من أقاصيصه .

بل أكثر من ذلك رأينا بعض الأزهريين الذين ألِفُوا التيار العربى الخالص ونماذجه يطلبون اللغات الأجنبية ويتعلمونها ، حتى يقفوا على صور آدابها ، وحتى يدخلوا فى هذا النطاق الحيوى الجديد .

وكل ذلك معناه التحام التيار الغربى بالتيار العربى داخل بلدنا فى حدة وقوة لم يسبق لهما مثيل ولا نظير فى تاريخنا الحديث . وأخذنا ندعم ذلك من وجوه كثيرة فمن جهة أنشأنا معهداً للموسيقى وآخر للتمثيل ، كما خطونا بالفنون الجميلة خطوات واسعة .

والحق أننا استطعنا أن نقيم لأنفسنا نهضة حقيقية ، وكان عمادنا فى ذلك الاتساع بالتعليم ، حتى نادى بعض مفكرينا بأنه ضرورة وأن من الواجب أن يتمتع به كل مصرى كما يتمتع بالهواء والماء .

وأصبح هذا التعليم يغزو القرى المصرية لا بسعيها إليه فى المدن المجاورة بل بنزوله فى شوارعها وبين جدرانها . وهو تعليم يسرى فيه هذا التيار الغربى ، بل إننا نغلو حين تسميه بهذا الاسم ، فلم يعد هناك تيار غربى بمعنى انفصالى ، فقد اتحد هذا التيار مع التيار العربى الموروث ، وأنتجا حياة عقلية جديدة كما أنتجا أدباً جديداً .

وفى أعلى هذا التعليم تتألق أشعة العلم والأدب وأضواؤهما فى جامعاتنا المصرية المختلفة ممثلة هذا الرقى العلمى والأدبى الذى أصبناه أو قل الذى أحرزناه ، فقد كنا قبل الأربعين سنة الأخيرة نشعر بأننا فى حياتنا العقلية والأدبية نتقدم ونتأخر شأننا فى حياتنا السياسية .

أما فى هذه الأربعين سنة الأخيرة فقد مضينا قدماً فى مختلف مناحى حياتنا السياسية والعقلية ، وكان من مظاهر ذلك تنظم حياتنا العلمية والأدبية عن طريق الجامعات التى أخذ علماؤنا وأدباؤنا فيها يسيغون كل ما هو عربى وكل ما هو غربى فى نهم شديد للمتاع الفكرى . وحتى الترجمة نظمت فقامت عليها جمعيات مختلفة كلجنة التأليف والترجمة والنشر ؛ وقامت عليها الحكومة ورعتها خير رعاية .

ولم نترجم فقط من الفرنسية أو الإنجليزية ، بل ترجمنا بعض عيون الأدب من الألمانية والإيطالية والروسية . وطبيعى أن يتوج هذا المجهود بالثمرة المنتظرة ، وهى إقامة أدب مصرى إنسانى أقامته سواعد شوقى وشكرى والعقاد والمازنى ولطفى السيد وطه حسين وهيكل وتوفيق الحكيم وغيرهم ممن أحدثوا لنا هذا الأدب ، فإذا هو لا يقف عند حدود بيئتنا المصرية وتراثنا القديم ، ولا عند البيئة الغربية وتراثها القديم والحديث . بل تتسع هذه البيئة ؛ فتصبح بيئة إنسانية كبرى ، تشيع فيها الغايات السامية للأدب الحقيقى ، وهى غايات الحق والخير والجمال .

٣

المطبعة والصحف

عُرفت المطبعة فى أوربا منذ القرن الخامس عشر ، وطبع الأوربيون بها الكتب العربية أو أخذوا يطبعونها بها منذ القرن السادس عشر ، وعنهم نقلتها تركيا فى القرن السابع عشر كما نقلتها سوريا فى القرن الثامن عشر . أما مصر فظلت لا تعرفها ، حتى كانت حملة نابليون ، فنقلتها إليها واستخدمتها فى منشوراتها .

ولم تلبث هذه المطبعة العربية أن غادرت مصر مع الحملة ، حتى إذا كان عهد محمد على أنشئت مطبعة بولاق المشهورة . ولما أخذ الرأى العام المصرى يتكون وأنشئت صحفٌ مختلفة تعبر عنه عظمت الحاجة إلى هذا الفن الأوربى الجديد ، فكثرت المطابع ، وانتشرت فى مصر والإسكندرية ثم فى عواصم القطر المصرى المختلفة ، وهى تعد اليوم بالمئات .

وعمد المشرفون على مطبعة بولاق منذ تأسيسها إلى طبع الكتب العربية والتركية ، كما كانوا يطبعون بها صحيفة الوقائع المصرية ، ولا نتقدم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى تكثر المطابع ويكثر طبع الكتب العربية القديمة ودواوين الشعر العباسية وغير العباسية .

وكان لذلك تأثير واسع فى حياتنا الأدبية ، فإن أدباءنا اطلعوا من هذه الكتب والآثار القديمة على مُثل ونماذج فى الأدب العربى لم يكونوا يعرفونها ، إذ كان كل ما يعرفونه من ذلك الآثارَ القريبة منهم المملوءة بالسجع وألوان البديع ، فلما طُبعت لهم كليلة ودمنة لابن المقفع وكتابات الجاحظ وابن خلدون وغيرهم كما طبعت لهم دواوين أبى تمام وأبى نواس والمتنبى وأضرابهم رأوا أساليب جديدة ، أما فى النثر فرأوا أساليب مرسلة خالية من التكلف والصناعة، وأما فى الشعر فرأوا نماذج بسيطة ليس فيها عقد البديع وكُلَفُه .

وأيدت أوربا بطباعتها العربية وجهود المستشرقين فيها هذه الحركة ، فقد طُبعت هناك كتب عربية قديمة كثيرة ، ووفدتْ على مصر ، فرأى المصريون فيها كما رأوا فيما طبع بين ظهرانيهم وتحت عيونهم لغة عربية أخرى غير التى كانوا يعرفونها ليس فيها سجع ولا إسراف فى التكلف ولا إلغاز وتعمية ، بل وجدوا فيها لغة بسيطة تحمل أفكاراً علمية وأدبية طريفة .

ولم تقف مطبعتنا العربية عند نشر الكتب القديمة والدواوين العباسية وإحيائها ، بل أخذت تنشر فى الناس الكتب الغربية التى يترجمها أعلام المصريين ممن حذقوا اللغات الأجنبية ، وكانت كثرتها فى النصف الأول من القرن الماضى كتباً علمية ، ولم تلبث أن زاحمتها فى النصف الثانى الروايات والكتب الأدبية .

وهذان الطرفان من الكتب القديمة والكتب الأوربية هما اللذان تعاونا فى إحياء العقل المصرى وبعثه فى أثناء القرن السابق وفى هذا القرن . ومما لا ريب فيه أن أصحاب الثقافة القديمة من المتون وشروحها والشعر الركيك المعقد قاوموا هذين الطرفين أو هذين العنصرين الجديدين ، لأنهما يخالفان ما ألفوا من فكر وعلم ومن أسلوب مسجع معقد . ويمكن أن نركز أصحاب هذه الثقافة القديمة أو المأثورة فى رجال الأزهر حينئذ ، فإنهم عدّوا الجديد الأوربى من بعض الوجوه مروقاً من الدين ، كما عدوا الأساليب الأدبية المرسلة ضعفاً فى اللغة وإسفافاً .

وبذلك وُجد عندنا فى القرن التاسع عشر هذا الصراع الأدبى الطريف بين من يمكن أن نسميهم محافظين ومن كانوا مجددين يطلبون ما عند الغرب وما عند العرب القدماء ، ويسعون لمزاوجة ، من شأنها أن تغنى الفكر المصرى وأن تطوّع اللسان المعبر عنه لأدائه أداء سليماً .

على كل حال كانت المطبعة عاملا خطيراً فى إيقاظ العقل المصرى فى أثناء القرن الماضى وتوجيهه إلى مُثل جديدة فى اللغة والفكر . ونحن لا نستطيع أن نقف وقوفاً بيناً على خطَر هذا العامل إلا إذا رجعنا النظرَ إلى الطريقة التى كان يُنْشَرُ بها الأدب قبل ظهور المطبعة ، فقد كان الأدباء يعتمدون فى ذلك على النَّسْخ باليد ، وكان هذا النسخ يكلف أثماناً باهظة ، ولم يكن كل الناس يستطيعون

أن يتكلفوا هذه الأثمان .

ونتج عن ذلك أن الأدب والعلم فى الأمم القديمة ومنها الأمة العربية كان محدوداً بطائفة خاصة ، بل كان محتكراً لها محصوراً فيها . ومن ثم كانت الحياة العقلية والأدبية ضيقة الحدود ، فهى موقوفة على فئات قليلة ؛ وقلما تجاوزتها إلى الشعب ، فكثرة الشعب كانت جاهلة لا تدرى من أمور الثقافة شيئاً .

فلما ظهرت المطبعة عملت على نشر الكتب ، وأصبح الكتاب الواحد يطبع منه مئات النسخ بل آلافها ، فأتيح لجمهور كبير من الشعب أن يطلع عليه ويفيد منه ، أولا لأنه يجده ، وثانياً لأنه يكلفه ثمناً بخساً . وبذلك اتسع تبادل الأفكار فى العلوم والفنون والآداب ، بل لقد أصبحت حقاً مشاعاً للجميع ، ولم تعد حبيسة على طائفة بعينها . وعلى هذا النحو ألغت المطبعةُ فى أوربا احتكار الأفكار ، وجعلتها من منافع الشعوب العامة ، وبعبارة أخرى ألغت أرستقراطية الأدب والعلم ، وجعلتهما ديموقراطيين ، فهما من حقوق جميع الأفراد .

وفُتحت فى كل مكان المكاتب لبيع الكتب ونشرها ، كما فتحت دور الكتب العامة أمام المتعلمين ليقرأوا فيها مالا يقدرون على شرائه . وكل هذا حدث فى مصر مع ظهور المطبعة فى القرن الماضى ، فقد أنشأ على مبارك سنة ١٨٧٠ دار الكتب المصرية ، وزوّدها بالكتب فى مختلف الآداب والعلوم والفنون ، ولم يكتف بالكتب العربية ، بل ضم إليها طائفة كبيرة من كتب اللغات الغربية ، وحدّد للدار أوقاتاً فى الصباح والمساء يغدو ويروح إليها الشعب للقراءة والاطلاع ، ووضع نظاماً لاستعارة الكتب خارجها . وبذلك كانت — ولا تزال — جامعة شعبية كبرى للثقافة والاطلاع العقلى الخصب .

ومما زاد فى أهمية الدور الذى لعبته المطبعة عندنا فى تثقيف الشعب اتساع دائرة التعليم منذ عصر إسماعيل ، فكثُر الجمهورُ القارىء الذى تخاطبه ، والذى يمكن أن يفيد منها ومن آثارها فى صقْل ذهنه وعقله .

وكان مما مكّن للمطبعة من ذلك عندنا وفى الخارج سهولة المواصلات فى العصر الحديث فإنها قربت المسافات بين الأدباء وقرائهم ، بل بين الشعوب

بعضها وبعض . وقديماً كانت طرق المواصلات صعبة ، وكانت بطيئة بطئاً شديداً ، إذ لم تكن هناك وسيلة سوى ظهور الإبل والخيل ، وكان الكاتب فى القاهرة إذا ألف كتاباً قلَّما عرفه المقيم فى الإسكندرية إلا بعد مضى شهور أو سنين ، فما بالك بمن يؤلف كتاباً فى بغداد بعيداً عن مصر والمصريين ، بل ما بالك بمن ينشر من المستشرقين كتاباً عربيًّا فى أوربا ، إننا قلما نسمع به أو نعرف عنه شيئاً إلا بعد أزمان متطاولة . أما فى هذا العصر فقد سَهُلت المواصلات فى الأرض وعن طريق البحر والجو ، وإذا ألَّف كتاب فى أوربا أو فى العراق أمكن أن يصل بعد أيام أو ساعات معدودة إلى القاهرة .

وكل ذلك عمل على إشاعة الآثار المطبوعة فى مصر ، لا ما طُبع فيها وحدها ، بل ما طبع أيضاً فى الشام والعراق وغيرهما من البلدان العربية ، بل إن ما يطبع فى أوربا يصلنا فى سرعة خاطفة ، فقد ألغيت المسافات وخاصة فى هذا القرن الذى نعيش فيه ، قرن التبادل الثقافى بأوسع ما تدل عليه هذه الكلمة .

فالمطبعة بالوسائل الحديثة فى النشر وبما أذاعت من أدبنا القديم وما تذيع من الأدب الغربى بيننا مترجماً وفى لغاته أحدثت آثاراً كبيرة فى حياتنا الأدبية ، أقل ما يقال فيها أنها وسعت دوائر الثقافة عندنا إلى أبعد الحدود .

ومن أهم آثارها بجانب إذاعة الكتب ونشرها بطريقة سهلة إصدارُ الصحف وإذاعتها فى طبقات الشعب المختلفة ، وكانت أوربا قد عرفت الصحف واتسعت فيها منذ القرن السابع عشر ، وهيأت الناس هناك لرأى عام يعلن عن نفسه بما يُظهر من رضا وسخط على الحكومات . وما لبث هذا الرأى أن ثار فى فرنسا على الأرستقراطية الملكية وما يتصل بها ، فكانت الثورة الفرنسية المعروفة .

ولما نزلت الحملة الفرنسية فى مصر كانت تصدر صحيفتين هما العشار المصرى La décade Egyptienne وبريد مصر Le courrier de l'Egypte ولكنهما استخدمتا اللسان الفرنسى ، فلم يكن لهما أثر فى الشعب المصرى . ولما ولى محمد على صدّر « جرنال الخديوى » وتحول هذا « الجرنال » فى سنة ١٨٢٨ إلى جريدة الوقائع المصرية ، وكانت تصدر فى أول أمرها باللسانين العربى والتركى ،

وقصرها رفاعة الطهطاوى، حين أسندت إليه فيما بعد، على اللسان العربى. وكانت تشتمل بجانب الأخبار الحكومية على بعض الطرائف الأدبية ، وكانت صحيفة رسمية لا تصور رأياً عامًّا . بل إن الرأى العام المصرى لم يكن قد تكوّن بعد ، ومن هنا كان نشاطنا الصحفى إلى أواسط القرن الماضى خامداً .

حتى إذا كان عصر إسماعيل واستأنفت مصر حياة عقلية نشيطة أخذ الرأى العام يتكون بسرعة ، وأخذت تتضافر عوامل مختلفة على النهوض بالصحافة إذ عُنيت نظارة المعارف فى عهد على مبارك بإخراج مجلة روضة المدارس ، وأشرف عليها رفاعة الطهطاوى، فوجّهها نحو غايتين، هما: إحياء الآداب العربية، ونشر المعارف والأفكار الغربية الحديثة، وعاونه فى ذلك جِلّةُ الأدباء والعلماء فى عصره ، فكانت المجلة تنشر مباحث طريفة فى الأدب والعلم بفروعه المختلفة . وكانت تصدر بجانب هذه المجلة مجلة اليَعْسوب وهى مجلة طبية أصدرها محمد البقلى وإبراهيم الدسوقى، وقد عملت على وضع المصطلحات الطبية والعلمية فى العربية .

وفى أثناء ذلك نمت الحركة القومية فى مصر ، وأخذت سياسة إسماعيل السيئة تتضح للشعب، وخاصة حين رضى بتأسيس صندوق الدين وبالمراقبة الثنائية، وغضب الرأى العام على هذه السياسة التى توشك أن تحطم مصر تحطيما . وسرعان ما أخذت الصحف السياسية طريقها إلى الظهور منذ هذا التاريخ من مثل وادى النيل لعبد الله أبى السعود، ونزهة الأفكار لمحمد عثمان جلال وإبراهيم المويلحى، والتنكيت والتبكيت وأختها الطائف لعبد الله نديم . ومن قبله أخرج يعقوب صنوع صحيفة « أبو نظارة » وهى أول جريدة سياسية هزلية ظهرت بمصر . وكان ينقد فيها سياسة إسماعيل نقداً مرًّا .

وتصادف أن نزحت إلى مصر طوائف السوريين واللبنانيين الذين سبق أن تحدثنا عنهم فأسهموا مساهمة قوية فى هذه النهضة الصحفية الشعبية ، وصدر كثير منهم عن نفس المشاعر الوطنية التى صدر عنها المصريون فى صحافتهم ، على نحو ما صنع أديب إسحق فى جريدته «مصر» التى كانت تنطق عن رغبات

المصريين فى الإصلاح ، حتى فى المجال الدينى الإسلامى الذى كان يعمل فيه جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده . ومن الصحف التى أسسها هذه الجماعة صحيفة الأهرام ، وصحيفة المقطم .

ولما جثم الاحتلال الإنجليزى على صدر مصر خمد صوت المصريين الوطنى وأغلقت أكثر الصحف أبوابها ، حتى إذا نشط الرأى العام من جديد ونشطت معه الحركة الوطنية عادت الصحافة إلى النشاط ، فأنشأ الشيخ على يوسف صحيفة المؤيد ، وأنشأ عبد الله نديم صحيفة الأستاذ ، ثم أنشأ مصطفى كامل صحيفة اللواء ، واتخذت جماعة من المصريين صحيفة « الجريدة » لساناً لها وهى الجماعة التى تسمت باسم حزب الأمة . ويحاول الإنجليز مراراً أن ينكلوا بصحافتنا ، ولكنها تستمر رغم إنذاراتهم وقوانين مطبوعاتهم ، ويستمر ظهور الصحف من مثل مصباح الشرق ، غير الصحف الهزلية .

وتنكشف غمة هذا الاحتلال عن صدر مصر ، ويوضع الدستور ويقام البرلمان وتنشأ الأحزاب المصرية ، وتتعدد صحف كل حزب ، ويتسع النشاط الصحافى إلى أقصى حد مما لا نزال نرى آثاره إلى اليوم .

ومع هذه الصحف صدرت مجلات متنوعة منها الأسبوعى والشهرى ، ومن أهمها المقتطف التى أسسها أصحاب جريدة المقطم فى القرن الماضى والهلال والسياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعى والكاتب المصرى والكتاب والرسالة والثقافة .

وهذه المجلات المختلفة كانت تنشر فصولا طويلة فى العلم وخاصة مجلة المقتطف وفى الأدب الغربى والعربى ، وكان هذا هو الغالب على المجلات التى سميناها ، وأخذت الجامعات المصرية منذ نشأتها تصدر مجلات دورية كل عام ، تعالج فيها كل كلية أبحاثها الخاصة .

وإنما أطلنا فى وصف هذا النشاط الصحفى لندل على أن تحولا واسعاً أصاب أدبنا عن طريق هذه الصحافة ، فإنها أخذت تعالج موضوعات سياسية واجتماعية واقتصادية لا عهد لأدبنا القديم المسجوع بها ، فقد كان أدباً لفظياً ،

ولم يكن محشواً بمعان لا قومية ولا إنسانية ، بل كان فارغاً ، فملأت الصحافة فيه هذا الفراغ ، ووصلته بالآداب الغربية وما فيها من دراسات فى شئون الحياة وحقائق العلوم والمذاهب الفلسفية .

وأخذ يعبر هذا الأدب عن حاجاتنا فى وضوح : الحاجات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكل ما أردناه من إصلاح فى الدين وغير الدين ، بل لقد أوجد لنا صوراً أدبية جديدة لم يكن لنا بها عهد ، من مثل المقالة والقصة ، وسنعرض لهما فى غير هذا الموضع .

وأثرت الصحافة فى أدبنا أثراً آخر لا يقل عن هذا الأثر أهمية ، إلا أنه يتناول فى هذه المرة الظاهر والثياب الخارجية ، فقد كنا نستخدم أسلوباً مسجعاً معقداً بعقد البديع ، وهو أسلوب كان يمكن أن يقبل فى العصور السابقة حين كان الأدب يخاطب بيئة خاصة هى البيئة الأرستقراطية ، أما اليوم فإن الصحف لا تخاطب بيئة بعينها ولا طبقات بعينها ، وإنما تخاطب جماهير الشعب التى لا تعرف التعقيد ، بل التى تَتَكْلَفُ بالبساطة والسهولة .

واضطر ذلك الكُتَّاب إلى أن يخلعوا عن أدبهم الثياب القديمة البراقة ، ويعمدوا إلى ثياب أخرى طبيعية هى ثياب الأسلوب المرسل ، حتى يفهم عنهم الجمهور ما يكتبون دون عناء أو مشقة . ومن الحق أن هذا الاتجاه أتاح لأدبنا مرونة واسعة ، فقد أخذ الكتّاب يعبرون أحراراً عما فى أنفسهم غير متقيدين بسجع ولا بلون من ألوان البديع ولا بأى صورة من صور التكلف .

وليس هذا كل ما أحدثه اتجاه أدبنا إلى الجماهير عن طريق الصحف من آثار ، أو بعبارة أدق ليس هذا كل ما أحدثته مخاطبة الجماهير فى أدبائنا من نتائج ، فقد أصبح هذا الأدب فى جملته اجتماعيّاً ، لا يخاطب الأفراد ولا يعنى بهم كما كان الشأن فى القديم ، وإنما يخاطب الجماهير ويعنى بها وبمشاعرها وأحاسيسها .

لم يعد الأدباء يخاطبون بأدبهم ملوكاً وأمراء يتملقونهم ويرضونهم بما يكتبون وينظمون ، بل أصبحوا يخاطبون الجماهير ويحاولون أن يرضوها وأن

ينالوا عطفها ، فهى التى تمنحهم أرزاقهم عن طريق ما تشترى من صحفهم أو كتبهم . وردّ ذلك إلى أدبائنا حرياتهم ، وإن كانت قد بقيت حينئذ قلة وخاصة من الشعراء تحاول استرضاء أمراء البيت العلوى ، ولكن حتى هؤلاء الشعراء كانوا يحاولون استرضاء الشعب المصرى فيما يقدمونه إلى هؤلاء الأمراء من شعر ، فيذكرون بعض الإصلاحات التى تمت فى أيامهم ، أو يثيرون عواطف دينية ووطنية فى أشعارهم .

فحتى قصائد المديح التى كانت تنظم فى توفيق وعباس وغيرهما كان أصحابها يفكرون فى الشعب بجانب تفكيرهم فيمن يمدحونه ، ويحتالون لذلك حيلا كثيرة ، حتى يقعوا من نفس الشعب موقعاً حسناً ، وحتى يظفروا برضاه وإعجابه . وعلى هذا النحو أصبح الشعب ، الذى لم يكن يحفل به أدباؤنا من قبل ولم يكونوا يعنون به ، موضعَ احتفالهم وعنايتهم ، واتسع هذا الاحتفال واتسعت تلك العناية فى النثر ، فأصبح شعبياً خالصاً أو كاد .

وجارت عليه هذه الشعبية بعض الجور أو على الأقل جارت على بعض جوانبه ، فإن طائفة من الأدباء أسرفوا فى تبسيط أساليبهم إلى درجة الابتذال ، حتى يعجبوا الذوق المتواضع فى الشعب وينالوا استحسانه . وقد يكون من أسباب ذلك السرعةُ فى إنتاجهم ، وهى سرعة يقتضيها عملهم ، إذ يُلْزَمون بكتابة مقال أحياناً بعد ساعات أو بعد لحظات ، فلا يجوّدون معانيهم ولا أساليبهم ولا يحققون لمقالهم ما ينبغى من جمال وروعة فنية .

ومع ذلك لا تزال عندنا طبقة من أدبائنا الصحفيين تعنى بأساليبها وتحاول جاهدة أن تلائم بين ضرورات الصحافة وما يتطلبه الإنتاج الأدبى فيها من سرعة وبين الذوق الأدبى الرفيع ، فهى لا تدنو إلى الطبقة الدنيا فى الجمهور ، بل تحاول أن ترتفع بها عن طريق معانيها الغزيرة ، وأساليبها الرصينة .